فرديناند دو سوسير: المعلوم الذي لا يُعلم عنه

أ.م أسماء حسن شلش
كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية – جامعة بغداد- العراق
Asma1221978@gmail.com

التقديم: 2022/6/12 القبول: 2022/8/1 النشر: 2023/3/15

Doi: https://doi.org/10.36473/ujhss.v62i1.1989

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International Licenses

المـــلخص

تساوت الدراسات التي تناولت فكر سو سير وحقيقته، مع الدراسات التي تناولت نظريته في اللغة، في كثرتها، بل وُجِد كثير منها تناول سو سير فِكرا ونظريةً تحت بحثٍ واحد، ومع هذا لم يزل هذا اللساني حتى وقتنا الحاضر محط للفضول والشك من قِبل الدارسين؛ كونه لم ينشر ما كتبه، ولم يَكتُب ما نُشِر عنه. لذلك يرتأي هذا البحث أن سو سير لم يكن قاصدًا وضع مفاهيم اللغة التي تناولها بالدراسة، في ثنائيات متقابلة، وربما هذا البحث، ليس الأوّل في قول ذلك، لكنّه عمَد إلى إيضاح كيف حدث ذلك، من خلال تتبّع بحث سو سير وتفكيره في محاضراته التي نشرها تلامذته، بالي و سيشهاي في اللسانيات، ومعلوم أن كثير من الباحثين جعلوا شاهدهم، الذي يعضد رأيهم هذا – أنّ سو سير اعتمد الثنائيات منهجًا في دراسته – هو اكتشاف بعد قرن من وفاته مخطوطات كتبها بيده، بعنوان (في الجوهر المزدوج للّغة). أما هذا البحث فهو يستشهد بهذا المُكتشف أيضًا؛ ليثبت عكس ذلك، أي أن سو سير لم يقصد الثنائيات قصدًا، ولم يجعلها منهجًا لدراسته، والبحث وفق هذه الرؤية يطرح سؤالًا لم يجرأ بحث قبله أن يطرحه للنقاش، ألا وهو : ماذا لو كان (في الجوهر المزدوج للغة) مخطوطات موضوعةً، وليست نتاجًا فكريًّا موروثًا عن سو سير.

الكلمات المفتاحية : المحاضرات ، الجوهري ، وجهات النظر، تلامذة سو سير، اللسانيات.

Ferdinand de Susseur: The Known that is not known about

Asst. Prof. Asmaa Hassan Shalash
College of Education - Ibn Rushd for Human Sciences - University of Baghdad-Iraq
Asma1221978@gmail.com

Abstract

The studies that dealt with Su Sir's thought and its truth were equal to the studies that dealt with his theory of language, in their abundance. Indeed, many of them were found to deal with Su Sir's thought and theory under one research, and yet this linguist is still a subject of curiosity and suspicion by scholars; because he did not publish what he wrote, nor did he write what was published about him. Therefore, this research deems that Su Sir did not intend to put the concepts of the language that he studied in contrasting binaries, and perhaps this research is not the first to say that, but he intended to clarify how this happened, by tracking Su Sir's research and his thinking in his lectures that he published His students, Bali and Sishai in linguistics, and it is known that many researchers made their witness, and what supports their opinion - that Su Sir adopted dualities as a method in his study is the discovery a century after his death of manuscripts he wrote with his own hand, entitled (On the dual essence of language). As for this research, it cites this discoverer as well. To prove the opposite, that is, Su Sir did not intend the dualities intentionally, and did not make them a method for his study, and the research according to this vision raises a question that no research before him had dared to raise for discussion, namely: What if (in the dual essence of the language) were written manuscripts, and not an intellectual product Inherited from Su Sir.

Keywords: lectures, essential, points of view, students of Su Sir, linguistics

المقدمـــــــــة

جاء هذا البحث لينطلق ممّا انتهى إليه الباحثون في اللسانيات، وأكثر قُراء سو سير، يعلمون بأمر المخطوطات المكتشفة، التي سنشير إليها في متن البحث بـ(الجوهري) اختصارًا، فهي المحطة الأخيرة التي وقف عندها أغلب اللسانيين اليوم؛ فليس بالقليل ما قد قيل في فكر سو سير المحفوظ بين دفتي كتاب (محاضرات في اللسانيات العامة) الذي سنشير إليه في متن البحث بـ(المحاضرات) اختصارًا، الذي دوّنه تلاميذه عنه، إذ بوقفة بسيطة على الدراسات الحديثة الأخيرة، سيلتمس الدارس الحملة ضد الفكر القديم، و الدعوة إلى فكر جديد، متناثر بين أكوام من الورق، لا يُعرف تمامًا ظروف اكتشافها إلى الآن، سوى رواية مختصرة تشير إلى مكان وجودها وحسب، ومهما كان، فكلّ دعوة لها ملبّون، وليس كلّ من لبّى، قد أطاع، فهناك تلبية للفضول، وهناك تلبية للنُّصرة، وثالثة مجرد اتباع دون تمحيص، ورابعة تقليد دون فهم، وغير ذلك كثير من أساليب التلبية، و بحث (فرديناند دو سو سير : المعلوم الذي لا يُعلم عنه) نُصرةً، وداعيًا لتمحيص بعض الدعوات، بطريقة أو بأخرى، فأخذ هيكل البحث يتشكّل من مبحثين، الأول بعنوان : وجهات نظر

متعارضة، لا منهج ثنائيات، وتحته بُحثت عدد من الفقرات المُختلف عليها في نظرية سو سير اللسانية، منظورًا إليها من خلال كتاب (المحاضرات)، أما المبحث الثاني، بعنوان : التحقق من الأوراق المحقَّقة، وقد بُحِث تحته عدد من الفقرات المدعو إليها في الوقت الحاضر في لسانيات سو سير، منظورًا إليها من خلال نصوص (الجوهري)، حتى ينتهي البحث بعدد من النتائج، التي تمثل في جوهرها عدد من الدعوات، لإعادة النظر في التوجه الجديد في اللسانيات السو سيرية.

المبحث الأول:

وجهات نظر متعارضة، لا منهج ثنائيات.

أولًا : اللغة ليست كائنًا حيًا، لا بل هي كائنٌ حي :

عُرِف سو سير، أنه رائد لدراسة اللغة الحيّة (المنطوقة)، وهذه نتيجة ارتكزت على استمرار بحثه في النصوص التاريخية، لكن ما لا تكاد أن تبيّنه نتاجات الباحثين، أن بدايات النظر عند سو سير انصبّت في الاقتناع بأنَّ اللغة ليست كائنًا حيًّا منذ أوّل بروزه في ساحة البحث اللسانيّ؛ ذلك نجده في رفضه لمنهج الدراسات المقارنة، وعدّها ممارسة لعلم النحو المقارن، لا تؤدي سوى إلى استنتاجات خاطئة لا تطابق الواقع اللغوي في شيء، ولاسيما مفهومهم عن تطور لغتين معينتين، فقال : " ممَّا زاد في إعاقة هؤلاء المقارنين عن الظفر بمثل هذه الاستنتاجات النهائية، أنهم كانوا يعتبرون تطور لغتين من اللغات مثلما يعتبر عالم الطبيعة نمو نبتتين من النباتات" (دروس في الألسنية العامة . فردينان دي سو سير. تعريب، صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة : 21 . *Ferdinand de Saussure* Lessons in General Linguistics edited by Saleh Al-Qarmadi, Muhammad Al-Shawsh, Muhammad Ajina).

ويُعلّق سو سير على مذهب (شليجر) الذي يذهب المذهب نفسه، مع أنه يلتزم منهج المؤرخين التزامًا، إذ أنه يعد " ما يحدث في صلب كل لغة أخرى، مثلما يمرّ نمو النباتات التي لها نفس النوع بنفس الأطوار، دون أن يكون نمو بعضها متعلقًا بنمو بعض ..." (المصدر السابق). وواضح أن سو سير يرفض النظر إلى اللغة على أنّها كائن حي وقتذاك، فضلًا عن رفضه تجزئة عناصر اللغة، وعدَّ ذلك من الأخطاء المنهجية، ووصف تلك العبارات بالغرابة والشذوذ، إلا أن سو سير لم ينفِ الاستفادة من تلك الأخطاء(دروس في الألسنية العامة : 22)، فوجدناه في بحوثه المتقدمة يذهب إلى الحديث عن مستويات اللغة (صوت، لفظ، معنى ...) فيفصل بينها في الدراسة، ليخرج بأسلوب بحث مختلف عن مناهج السابقين، فهو ينظر للغة ككلّ متكامل (نظام) ثم يتدرّج ليفصل المستويات اللغوية ليصل إلى نتائج واضحة مفهومة، فإذا كان (شليجر) يفصل بين اللغات، فسو سير استثمر ذلك الفصل لصالح منهجه في الدراسة.

وممّا يقف إلى جانب فهمنا هذا ما نقله أحد الباحثين : إن سو سير في بحثه عن اللغة " يرفض أيضًا كلمة (جسم) التي تحمل صورًا للألسنة يشبهها بالكائنات الحية " (فهم دو سوسور وفقًا لمخطوطاته. لويك دويكير . تعريب، ريمة بركة : 117

understanding of de Saussure according to his manuscripts . Loic Douecker . Ta'rib, Rima Baraka) فيرفض التكلّم على (جسم) ويعوّض عن ذلك بالتكلّم على (نظام)، فسو سير يحاول تجسيد فهمه، فجعل للإشارة وجه و روح (المصدر السابق : 136–137)، ليأتي بعد ذلك في محاولة جديدة لتسمية جزأي الإشارة معًا فيستعمل لفظة (جسد الـ seme أو جثته) لكنه سرعان ما يغيّر سو سير وجهته في البحث ويتنازل عن هذا المفهوم؛ لأن له سيئات، منها، أنه يوحي أن يكون للإشارة (جسد) كما للكائن الحي، وهذا مؤداه أن يوقع الباحث في العضوانية (owua جسد) بالرغم من موته فهو يوحي بالكائن الحي.

ويبدو أن سو سير استعمل (جثة) لخلوها من الحياة، فيكون قد ابتعد عن مفهوم الكائن الحي، فوجد نفسه يصطدم بمفهوم (العضوانية) الذي لا يخلو من الحياة وإن كان العضو ميتًا! و يا لها من فرضية! سو سير يرفض (الجسد) لأنه يوحي بالحياة، وفي الوقت نفسه يؤكد رفضه له حتى لو كان الجسد ميتًا! أ يرفض سو سير حياة اللسان أم يرفض موت اللسان؟!

وجدير ذكره، إنَّ سو سير يتوسط بنظرته لحياة اللغة بين نظرة أصحاب الدراسة المقارنة للغة، على أنّها تنمو من تلقاء نفسها، وبين نظرة النحاة الجدد، المدرسة اللغوية الجديدة، الذين يرون اللغة نتاجًا من نتاجات الفكر الجماعي للمجموعات اللغوية (ينظر: دروس في الألسنية العامة : 22_23) تلك المدرسة ظهرت في أثر (ويتني) صاحب كتاب (حياة اللغة) (ينظر: البحث عن فرديناند دو سو سير . ميشال أرِيفيه. ت، أ.د. محمد خير محمود البقاعي، ذكر الباحث أن عنوان الكتاب (حياة اللغة) : 55 Searching for Ferdinand de – Michel Arreve – Prof. Mohamed Khair Mahmoud ALBeqai) الصادر في (1875)، يقف سو سير متوسطًا بين النظرتين، ذلك حين ذكر تلامذته بالي و سيشهاي رأيه في أحد الهوامش في المحاضرات فقال : " لقد التصقت هذه المدرسة الجديدة بالواقع، فشنّت حربًا ضدّ ما استعمله أصحاب المنهج المقارن من مصطلحات، وخاصة ضدّ ما كانوا يعتمدونه من تشبيهات واستعارات لا منطقية، ومن ذلك الحين لم يعد أحد يتجرأ فيقول : " إن اللغة تفعل كذا أو كذا " أو أن يتحدث عن " حياة اللغة" الخ؛ وذلك لأن اللغة ليست كيانًا قائمًا ولا وجود لها إلا في أدمغة المتكلمين، على أنه ينبغي أن نتجنب الغلو والشطط في هذا الموضوع، فأما المطالبة بالاقتصار على استعمال مصطلحات التي تطابق واقع الكلام البشري والالتزام بذلك دون سواه، فمعناه الادعاء بأن هذا الواقع قد انكشفت لنا أسراره وخباياه كلها، وما أبعدنا عن ذلك" (دروس في الألسنية العامة . الهامش : 59).

ومع أن سو سير ردّ على المقارنين منهجهم في الدراسة، إلا أنه لم يمل كل الميل مع النحاة الجدد في منهجهم؛ لأنه يؤمن بأن كل وجهة نظر بإمكانها أن توصل الباحث إلى سر من أسرار اللغة، فضلًا عن أن هذا الموقف يدلنا على أن لسو سير منهجه الخاص الذي اختطه لنفسه، لذلك هو لا يتردد أو يتحرّج من استعمال مصطلحات أو أفكار، ممّا رفضها السابقون.

ثانيًا: حياة اللغة في المنطوق، لا بل في المكتوب، لا بل بهما معًا :

بعد ذلك قرر سو سير، أنّ الكلام المنطوق (اللغة الحية)، يفلت بعض الأحيان من الملاحظة، لذلك لابدَّ من الاستعانة بالمكتوب (اللغة الميتة)، ليصل إلى نتائج أكثر قربًا إلى الواقع اللغويّ، ويتضح لدى سو سير هذا التحوّل في التفكير عند حديثه عن العوامل الداخلية والخارجية المؤثرة في الجهاز اللغوي، فقال : " مثلما يتغيّر جهاز النبتة الداخلي، بفعل عوامل خارجية كالتربة والمناخ الخ، أ فليس جهاز اللغة النحوي يتغيّر دائمًا بمفعول العوامل الخارجية التابعة للتغيّر اللغوي؟" (ينظر المصدر السابق 45–46).

فسو سير هنا يؤكد على تفكير أسلافه، إذ يشبّه اللغة بالنبتة التي تتأثر بعوامل البيئة، وهو في الوقت نفسه، يرفض أن يعترف بتلقائية هذا النمو، فلا تلقائية بوجود عوامل خارجية مؤثرة في النبات! ومع أنّ ميدان دراسة سو سير الأول هو البحث في النصوص السنسكريتية القديمة، إلّا أنّ الباحث يجده بعد ذلك يعدل عن الاعتماد الكلي على النصّ المكتوب، ويعطي الكتابة مرتبة ثانوية بالنسبة للمنطوق (ينظر : البحث عن فرديناند دو سو سير . 114–115) فقال : " فقد كان التخلي عن الحرف المكتوب بالنسبة إليهم معناه أن تزلّ بهم القدم، أمّا بالنسبة إلينا فهي خطوة أولى نخطوها نحو صوب الحقيقة" (ينظر : دروس في الألسنية العامة . 62).

ولأجل أن يبرر سو سير هذا التحوّل الفكري، أخذ يناقش أسباب تبجيل الكتابة، وأنظمة الكتابة، وأسباب عدم التطابق بين المنطوق والمكتوب، حتى وصل إلى استنتاج مهم وهو : " أنّ الكتابة تقيم بيننا وبين اللغة حجابًا يمنعنا من رؤيتها كما هي؛ وذلك أنّ الكتابة ليست ثوبًا عاديًا تلبسه اللغة، بل هي قناع خدّاع تتنكّر فيه ..." (المصدر السابق : 56) وهذا الفهم دعا بعض الباحثين إلى أن يعدّ تدخل التاريخ في البحث اللغوي يزيف أحكام اللغوي (ينظر : سو سير رائد علم اللغة الحديث، د– محمد حسن عبد العزيز . 44–45 .(Saussure, the pioneer of modern linguistics, Dr. Mohamed Hassan Abdel Aziz

وبالنظر إلى النصّين السابقين، نجد أن التمسُّك بالنص المكتوب، من وجهة نظر سو سير، خِداع وتنكُّر للغة، وأن التخلي عن المكتوب خطوة نحو الوصول إلى حقيقة اللغة، مع أنه في مقدمة محاضراته كان يحتفي بالمكتوب، ويعده مادة الألسنية التي لا يمكن الاستغناء عنها، لكنه صار يضع المكتوب على جانب، ويحوّل تفكيره من نصّ ذي حدود إلى مُنتج النصّ وحدوده المتشعبة، ليبحث في فكر الفرد و المجتمع و الإشارة و المراجع ... فقال مستنتجًا بحوثه في هذا الصدد : " إنّه من الممكن أن نتصور علمًا يدرس حياة العلامات في صلب الحياة الاجتماعية، وقد يكون قسمًا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي قسمًا من علم النفس العام"(دروس في الألسنية العامة : 37).

ومهما يكن من شيء، فقد جزم سو سير، أنّ "شهادة الكتابة على اللغة لا قيمة لها إلّا إذا أولناها تأويلًا"(دروس في الألسنية العامة : 63–64) و سو سير في كلّ ذلك، أراد أن يحيل البحث اللساني إلى وجهة جديدة، بدلًا من اعتبار اللغة دائمًا موروثًا تاريخيًا عن الأجيال السابقة، فترك للباحثين المتعمقين تساؤلًا يدعوهم إلى التفكير في طرائق البحث ألا وهو : "وقولك: "إنَّ اللغة إرث" قول لا معنى له، إن أنت لم تتخطّه

إلى ما هو أبعد منه، أ فليس من الممكن تحوير القوانين الموجودة من حين إلى آخر؟ "(المصدر السابق:177).

ونتيجة لهذا الفهم والمنهج اللذين اتبعهما سو سير في دراسة اللغة، انبثق عنده مفهوم (القِيَم)، إذ قرر : " أن العلاقات والاختلافات القائمة بين عناصر اللغة، تدور في نطاق دائرتين متميزتين، تولّد كل واحدة منها نوعًا معينًا من القيم، وأنّ التقابل بين هذين النوعين يزيد من تباين طبيعة كل منهما، فهما يوافقان صورتين من صور نشاطنا الذهني لازمتين معًا، ولا غنى لحياة اللغة عنهما"(المصدر السابق : 186)، وهذا النصّ يوضح للدارس عودة سو سير للنص المكتوب، وأن حياة اللغة عنده لا تتوقف عند دراسة اللغة المنطوقة وحسب، إنما في النصّ المكتوب أيضًا؛ فتلك العلاقات و الاختلافات بين عناصر اللغة حاضرة في المنطوق والمكتوب على حدٍّ سواء، و ناتج الاختلافات و العلاقات، هي القيم اللغوية، و بهذه الحركية تتحقق للغة حيويتها.

لذلك هو يلتفت إلى النصّ التاريخي، ولا يبتُّ الصلة به ما دمنا نستنطق النصوص من خلال نشاطنا الذهني، وهو ما أطلق عليه مسبقًا (التأويل)، وأنّ هذا الفهم دعا عددًا من الباحثين إلى تقييد فكر سو سير بالبنيوية، فقال أحدهم : " يمكننا تلخيص وجهة النظر البنيوية وتوضيحها بقولنا : إنّ اللغة شكل وليست جوهر' أي أنّ ليس لعناصرها من خواص سوى الخواص التضادية و التراصفية ..." (فرديناند دو سو سير، تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات . تأليف جوناثان كللر. ترجمة وتعليق : محمود حمدي عبد الغني، مراجعة : محمود فهمي حجازي 63 . Ferdinand de Saussure, The Rooting of Modern Linguistics and Semantics . authored by Jonathan Keller translation and (commentary: Mahmoud Hamdi Abdel-Ghani, review: Mahmoud Fahmy Hegazy

وقبل هذا كان قد صرّح : " تلك الحقيقة تمثل محور نظرية اللغة عند سو سير : اللغة شكل وليست جوهر، فاللغة نسق من أنساق القيم المترابطة تبادليًا ... وكلّ الأساليب غير الدقيقة التي نستعين بها في تعيين مختلف مظاهر اللغة، هي في الواقع نتيجة لافتراضنا اللاإرادي، أن الظواهر اللغوية يجب أن يكون لها جوهر"(. المصدر السابق : 59–61).

هذا الفهم لا غبار عليه، إن كنّا نقف عند وجهات النظر الأولى لسو سير، التي تقف عند بحثه في النصوص السنسكريتية القديمة، ولكن بنظرة شاملة وفاحصة في تفكيره بعد ذلك، لا يمكن قبول هذا الفهم؛ وخاصة أن مفهوم (الجوهر) في بعض المعاني يقابل مفهوم (حياة اللغة)، ومفهوم (شكل) يقابل في بعض معانيه مفهوم (النص المكتوب)، ومن ثمّ فلا وجود لافتراض لا إرادي لدى الباحثين المفكرين؛ لأنّ سو سير استعان في بحوثه المتقدّمة بالمفهومين معًا، للحصول على نتائج جديدة، لذلك عُدّ أسلوبه في البحث ودراسته للغة، أسلوب الدراسة المنهجية (ينظر : اللسانيات، مقدمة إلى المقدمات. جين إتشسن. ترجمة، عبد الكريم محمد جبل:23–32 . Jane Echeson . Linguistics, Introduction to Introductions .(Translator, Abdul Karim Muhammad Jabal,

ثالثًا: إنَّما حياة اللغة في رحم فكر الإنسان:

ليثبت سو سير حيوية اللغة، فهو يمرّ بكلّ ما له علاقة ببيان ذلك، فينتقل من النصّ المكتوب، إلى اللغة المنطوقة، ثم إلى مُنتج النصّ (فكر الإنسان ووعيه)، فقال : " إنّ الحالة اللغوية ذات طابع عفوي دومًا ... فقد تحدث حالة لغوية عفوية من طريق الاتفاق، وتصبح معطى من المعطيات، كنحو حدوث fet : fot فنغتنمها لنحمّلها دور التمييز بين المفرد والجمع، ولكن هذا لا يعني أن الحالة اللغوية fet : fot أوفق للتعبير عن ذلك المعنى من foti : fot إنّما ينفخ فكر الإنسان– بالنسبة إلى كل حالة لغوية – في مادة معينة ويبعث الحياة فيها"(دروس في الألسنية العامة . 126) إذن سو سير يجعل مضمار حياة اللغة (فكر الإنسان) وهو صانع لها، ذلك حين ينفخ في حالة لغوية ميتة، ليبعث فيها الحياة، لكن ماذا أراد سو سير بـ (النفخ)؟

بحثُ سو سير في هذا المضمار موسّع جدًا تحت باب (علم النفس) فقال : إنَّ " اللسانيات علمٌ يمكن اختزاله في نهاية المطاف بعلم النفس، ولكنه رغم ذلك غير مماثل له"(فهم فردينان دو سو سير وفقًا لمخطوطاته : 169)، ولكي يثبت سو سير فهمه السابق عمد إلى دراسة (كيانات ملموسة) في اللغة تحت قسم (الألسنية الآنية)، فماذا أراد بـ(الكيانات)؟

الكيانات هي : " الدلائل مع ما بينها من علاقات ... فلا وجود للكيان اللغوي إلّا بفضل اختزان الدال والمدلول. وما أن نقتصر على أحدهما دون الآخر، حتى يتلاشى ذلك الكيان، ويضمحل عن كونه شيئًا ملموسًا، ويدخل في عداد محض من المجردات ..."(دروس في الألسنية العامة : 160)، فالكيان اللغوي (الدليل) ليس موجودًا أساسًا إن انعدمت العلاقة بين الدال والمدلول، ولكن أين هذا الوجود الملموس؟ لا شك أنه الفكر الإنساني.

بعد هذا يلاحظ الدارس أن سو سير يرفض تشبيه وحدة (الكيان اللغوي)، بوحدة (الذات البشرية) مع ما في ذلك من إثبات لحيوية اللغة. فقال : " وكثيرًا ما شبّهوا هذه الوحدة التي لها وجهان، بوحدة الذات البشرية المركبة من الجسد والروح، لكن هذا التشبيه بين الأمرين لا يرضينا كلّ الرضا؛ ولعل الذهاب إلى تمثيلها بمادة كيميائية مركبة كالماء مثلًا، يكون أقرب إلى الصواب ..."(المصدر السابق: 160) ، فما الذي يمنع سو سير حين أراد أن يقرّب للدارس مفهوم (الكيان اللغوي الملموس) أن يستبعد ثنائية (الجسد و الروح) في التشبيه، مع أن الكيان قد يكون الروح، والملموس قد يكون الجسد، ويفضّل المقاربة بمثال كيميائي؟

الجسم الحي ينمو ويلد ويموت، و المركب يتحد يتفاعل ينتج، وكلاهما مثالين طبيعيين، لكن سو سير أراد بذلك تحويل نظر الدارسين في عصره، عن عدّ اللغة كائنًا حيًّا محضًا – إن صح التعبير– فضلًا عن تأثره بدراسة الكيمياء إلى جانب الطبيعة في بدايات التحاقه بجامعة جنيف 1875، انصياعًا لتقاليد عائلته آنذاك (ينظر : سوسير رائد علم اللغة الحديث :10، وينظر : دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللسانيات: 157، وينظر: البحث عن فردينان دو سوسير : 48–49)، و ممّا يعضد مذهب الباحثة، أمثلة سو سير الكثيرة المبثوثة في محاضراته وغيرها، فقد أعطى من الأمثلة ما لم يسبق للغوي محدث آخر– على حد علم

الباحثة– أن يعطي مثلها بهذا العدد و التفصيل، فأعطى مثالًا : لعبة الشطرنج و المنطاد و مركب الماء و الجبال والسهول و الثوب المسروق والثوب ذي الترقيعات و البطة والقطار و تهديم الشارع و الهواء على سطح الماء و الورقة و غيرها (ينظر : دروس في الألسنية العامة . 160 و 168 و 172 و 174)، في حين يجده الدارس، قد قال في أمثلة الآخرين : (هذا لا يرضينا كل الرضا ... و ذاك يكون أقرب إلى الصواب) كما مرّ ذكره.

و بعد، فإنّ سو سير يرى أنّ (تحليل المتكلمين) هو وحده المهم في النهاية، بدلًا من إجراء تحليلات عضوية أو ذاتية للغة (المصدر السابق: 276)، ومعنى هذا أن حياة اللغة في منظور سو سير ليست كالحياة العضوية التي نادى بها السابقون عليه أو معاصريه، إنّما هي حياتها في (رحم فكر الإنسان)؛ لأنّه يرى تحليل المتكلمين يقوم على شواهد من واقع اللغة، و هنا يطرح السؤال نفسه : ألا يمكننا الحصول على شواهد من واقع اللغة من تحليل اللغة المكتوبة؟

الإجابة على هذا السؤال نجده في رجوع سو سير إلى النصّ التاريخي، وعدم بتّه الصلة به، فيجده الباحث كثير الالتفات وكثير التساؤلات و كثير الاستدراك في شأن حياة اللغة و نموها، فبعد إقراره بأهمية تحليل المتكلمين؛ كون ذلك التحليل يعطي نتائج واقعية، يرجع ليقول إنّ هذا التحليل لا يمكنه في أغلب الأحيان من تحقيق نتائج تشبه نتائج وتحليلات اللغوي (بوب) (ينظر: دروس في الألسنية العامة : 277)، هذا التفكير الدائري جعل أحد الباحثين يلخّص نظرة سو سير التي استغرقت زمنًا طويلًا لتظهر على هذا النحو، فقال :"كانت الطريقة الوحيدة السائدة لتقديم تاريخ معترف به، هو التخاصم مع التاريخ ذاته في المحل الأول، ثم معالجة اللغات المنفردة أو الأنواع الحية بوصفها كينونات مستقلة يمكن وصفها و مقارنتها فيما بينها، بوصفها وحدات كلية، و من ثمّ – و بافتراض تلك الكائنات الحية المنفردة – يصبح في الإمكان إعادة اكتشاف التاريخ، و إن يكن على مستوى جديد، و بمجرد الانتهاء من تحليل الكيان الحي، كما لو كان كائنًا حيًّا قادرًا على إيجاد الأساليب الخاصة بإشباع الوظائف الأساسية، يتم اخضاعه للتحليل في ضوء الشروط التي مكنته من امتلاك تاريخ، و هذا يعني أن تاريخ الكائن الحي أو تاريخ الأنواع الحية، قد أصبح بمثابة سردٍ لقصة الأسلوب الذي تم إشباع الوظائف الأساسية به (فردينان دو سو سير، تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات.78–79).

و واضح جدًا أن النصّ يظهر أهمية الدراسة التاريخية، بل يظهر أنه لا غناء لباحث في اللغة العربية عنها، حتى لو كانت دراسته تقوم على المنهج الوصفي، أو تعتمد الدراسة الاجتماعية، و علم اللغة النفسي؛ لأنّ الدراسة التاريخية وسيلة لمعرفة الكيفية التي امتلكت بها (الكيانات الحية) الأساليب الخاصة بإشباع الوظائف الأساسية لها، والدارس في كل هذا يعرف أن دراسة الكيان الحي من منظور سو سير تتمّ في خطوة من خطوات الدراسة، من خلال دراسة فكر أو وعي الناطقين باللغة المعينة ... وبعد هذا لا يمكن الدارس أن يقبل الرأي الذي يذهب إلى " أن يكون سو سير هو الذي أسس اللسانيات المعاصرة، وهو في الآن نفسه الذي أغلق تطورها؛ لأنه رفع من شأن لسانيات اللسان الداخلية بشكلٍ خاص، و أهمل الشخص والتاريخ" (سوسير

في المستقبل. فرانسوا راستيي. ترجمة . ربيعة العربي و حافظ إ. عليوي: 19 و 31–32 Saussure in the Future François Rastieri . translation . Rabia El-Araby and Hafez E.).

المبحث الثاني : التحقق من الأوراق المُحقَّقة :

أولًا : فلسفة سو سير، ما هي إلا وجهات نظره

من الإجحاف أن يُظنَّ أنّ السبب وراء شُهرة سو سير، هو سوء الفهم المُتعدد لنظريته، و أنَّ النفاذ لفكرِهِ، مُتاحًا و متعذرًا في الوقتِ نفسِه (ينظر : سو سير في المستقبل: 16– 29)؛ وفي أيدينا عدد ليس قليلًا من الأوراق البحثية المنشورة في حياته أو المنقولة منشورة عنه بعد وفاته؛ لأنّ ما بسطه سو سير من آراء في اللغة، شأنه شأن أي رأي يطرحه علماء اللغة قديمًا أو حديثًا، و أن مثل هذه المقولات في فكر سو سير، هي التي أوهمت بسوء فهمه، و صعوبة النفاذ إليه، ثم أن العمل على إقران اسمه بالفلسفة اللغوية، ليس من باب الإساءة إليه قط،(ينظر : في جوهري اللغة : تحقيق سيمون بوكي و رودولف أنغلر. ترجمة مختار زواوي: In the essence of language: investigations by Simon Bucky and Rudolf 167 Engler . translated by Mokhtar Zawawi.، و ينظر المصدر السابق:180) إنّما هذا ما أراده لنفسه، و لكل باحث في اللغة؛ ذلك حين ركّز في أسلوب بحثه، على مفهوم (وجهة النظر)، (ينظر : فهم فردينان دو سو سير وفقًا لمخطوطاته :110–111 و ينظر : البحث عن فردينان دو سو سير: 67) وهو يعرض أفكاره على طالبيه وسامعيه في المحاضرات المُلقاة في جامعة جنيف بين عام 1907–1911، وأملاها عنه تلامذته، بالي و سيشهاي، بنحوٍ عفويّ أكثر ممّا هو محسوب ومقصود؛ إذ نستدل على ذلك من الإحصاء الذي أجراه مختار زواوي لورود مفهوم (وجهة النظر) في كتاب (المحاضرات)، ووجد أن تلامذته سجّلوه عنه (خمسين مرّة) و في مواضع مختلفة، و اعترف بأنّ هذا المفهوم، من المفاهيم المهمة التي تفسِّر كثير من تصورات سو سير في اللغة، و أكد أنَّ المفهوم شاع عن سو سير، من خلال (المحاضرات) التي نقلها طلبته، لكن الغريب أنّ زاواوي قال بعد ذلك في المفهوم : " و على الرغم من توارده مرات عديدة، فإنَّ المفهوم لم يبدُ حينئذ لشارل بالي وألبير سيشهاي من بين المفاهيم المؤسِسة، فغاب عن النقاشات التي دارت حول كتاب المحاضرات ... و لقد كان هنري ميشونيك من بين اللغويين المعاصرين القلائل الذين أشادوا بمفهوم وجهة النظر و أهميته في فهم فكر دو سو سير اللسانياتي، كما أشار أندري روسو من جهته، إلى عناية دو سوسير بهذا المفهوم، الذي ينبئ عن تصور متأصل في فكره، فلقد دأب دو سو سير على إثبات وجهة النظر في تقاريره السنوية، التي كان يعدها كل سنة للتعريف بمحتويات دروسه" (في جوهري اللغة : 95).

بالنظر إلى هذا النص، تلوح للباحثة عدد من التساؤلات هي : كيف لمفهوم يورده الناقلان التلميذان خمسين مرّة، و في مواضع مختلفة، ولم يكن المفهوم واضحًا لهما أو يلفتهما؟! أليس التكرار في عُرف اللغويين يُعدُّ من باب التوكيد على الأمر أو اللفظ؟ فكيف إذا كان تكرار اللفظ متكررًا خمسين مرّة بحسب بحث زاواوي نفسه؟! هذه التساؤلات تقودنا إلى عِدّة حقائق هي :

1. لا يتحمّل بالي و سيشهاي غياب المفهوم عن نقاشات الدارسين الباحثين بعد صدور (المحاضرات) وما تلاها من سنين؛ يكفيهم من الوفاء نقله كما ورد عن لسان استاذهم، في مناسبات أو محاضرات مختلفة.
2. اعتراف زاواوي، و آخرون بصحّة (المحاضرات)، ذلك حين اعترفوا بصّحة وورود مفهوم (وجهة النظر)، بل و عدّوه من المفاهيم المؤسِسة، و المهمة في فهم فكر سو سير.
3. وجود مفهوم (وجهة النظر) في كتاب (المحاضرات) و في تقارير سو سير السنوية، يدل دلال قاطعة على أنَّ الأسلوب الفكري في (المحاضرات) هو أسلوب سو سير نفسه، لا أسلوب تلامذته الناقلون؛ كما أتُهِموا، كون المفهوم موجودًا في التقارير التي كان يدونها بيده، و يلقيه في محاضراته على مستمعيه ومتلقيه، أي تلامذته.
4. إنَّ التوكيد على أنّ المفهوم، هو (فكر أصيل لدو سو سير ومتأصّل) من قِبل الباحثينِ المذكورينِ في النص السابق، يدل في الغالب، على الأمانة العلمية في كتابة ما يلقيه سو سير، على مسامع الحاضرين، من بينهم بالي وسيشهاي، وأنّ عدم مناقشتهما لهذا المفهوم، يردّ عنهما بعض ما أتُهِما به من تحريف و تلفيق و اختزال و فساد ... (ينظر : العودة إلى دو سوسير . أعمال مهداة إلى العلامة محمد البكري : 386 Return to de Saussure . Works dedicated to the scholar Muhammad al-Bakri و ينظر: في جوهري اللغة . 18 و 126 و ينظر: سوسير في المستقبل : 30).
5. ورود المفهوم بكثرة في نصوص (المحاضرات)، و عدم وروده بهذا النحو في نصوص (الجوهري) المُجمَّعة، يدل على اختلاف في أسلوب الكتابة و أسلوب الفكر (النظرة) بين (المحاضرات) و (الجوهري) في أحد جوانبهما؛ إذ لم يذكر زاواوي، إنَّ سو سير قد اهتمّ بهذا المفهوم في نصوص (الجوهري)،(ينظر : في جوهري اللغة : ذكر المحققان إن بعض عناوين المباحث هما من قاما بوضعها، و قد عنونا لمبحثين بـ(أربع وجهات نظر: 160) و(تماثل، القيم النسبية، وجهة نظر : 218) الذي قام بترجمته، و لطالما لم يغِب عنه أن يقارن بين النصين.
6. اختلاف رأي زاواوي بين الطعن بتلامذة سو سير فيما نقلوه عن أستاذهم، وبين التأكيد على ترك (المحاضرات)، بل وهجرها(ينظر : في جوهري اللغة : 15) والدعوة إلى الاعتماد على نصوص (الجوهري) فقط، ثم يأتي ويستشهد بتلك (المحاضرات) نفسها، يُعدُّ من باب التناقض، وهذا مرفوض في أسلوب البحث العلمي الرصين.

ومهما يكن من شيء، فإنَّ ورود مفهوم (وجهة النظر) بهذه الكثرة في (المحاضرات) يجعلنا نتأكد من رغبة سو سير في وضع فلسفة لائقة باللغة، فجعلها متعددة كثيرة، لا تتوقف عند حدّ، لذلك جاءت الآراء مختلفة في تأملات سو سير في اللغة (الفلسفية).

ومن المناسب القول : إنّ حوارية سو سير، لم تتوقف عند النظرة الثنائية و حسب، إنّما تعداها إلى ثلاثية النظرة، أو متعدد النظرات في الغالب، وهذا شأن الفيلسوف، لا يقتنع بالنظر إلى وجهة نظر واحدة، أو

الوجهة المقالبة لها في البحث و التفكير، و قد ذكرت كلودين نورمان، تحت مبحث (القطيعة السو سيرية) إنَّ قراء سو سير المعاصرين التمسوا العنف الذي سببه نظام هذا اللسانيّ، المعطى و غير المتجانس، المتروك للتكهن و التخمين، فعبّروا عن ذلك جيدًا، إذ يرى البعض أنّه قد قذف بشبكة ذات عيون صغيرة إلى السيل العرم، و بسبب هذا، لم يتمكّن دارسيه من رؤية معطيات نظريته جميعها بوضوح، كون وجهات نظر سو سير، قد توحّد من ناحية، وقد تفرّق من ناحية أخرى (ينظر : العودة إلى دو سو سير : 435) وعلى الدارس يلتمس هذا أيضًا، في مفهوم الرباعيات الرياضياتية، الذي أشار إليه زاواوي في ترجمة نص (الجوهري)،(ينظر: في جوهري اللغة : 119 وما بعدها)، و رغم ما سبق ذكره، يُلاحَظ أنَّ الدارسين يحكمون، بأنَّ سو سير ثنائي متقابل النظرة، في نص (المحاضرات) و نص (الجوهري)، بل و يعدّون الثنائيات مركز فكره، من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ المكتشفات كلها (الجوهري) مبنية على أساس فكرة رئيسية، هي (آنية المورفولوجيات، و تاريخية الصوتيات)، (ينظر: في جوهري اللغة : 98–99) وهنا يطرح السؤال نفسه : إن كان النص القديم يقوم على الثنائيات، و النص الجديد (المكتشف) يقوم على الثنائيات أيضًا، فما الاختلاف بين الأسلوبين، وقد اتُهم بالي و سيشهاي بالوضع وعدم الدقة و الأمانة في النقل عن أستاذهم؟!

و بعد كلّ ما سبق ذكره، نجد رودولف أنغلر و سيمون بوكي يؤكدان على أنّ بالي و سيشهاي قد أغفلا قطبين رئيسيين، أو طبقتين رئسيتين لفكر سو سير، بل و محاها محوًا تامًا، أولهما : ابستيمولوجيات للنحو المقارن، وثانيهما : فلسفة اللغة (ينظر : نصوص في اللسانيات العامة . تحقيق : سيمون بوكي و رودولف أنغلر. ترجمة : الدكتور مختار زواوي :171 Texts in General Linguistics . Investigation: .(Simon Bucky and Rudolf Engler . Translated by: Dr. Mukhtar Zawawi

و بعد، فإنه من المفارقة، أنّ يجد القارئ أنّ رودولف أنغلر و سيمون بوكي، يسجّلان في متن النصوص المُحقَّقة تفسير سو سير لعبارة (من وجهة النظر كذا)، فهو يرى أنّها عبارة " كثيرًا ما تبعث على التفكير في اللسانيات"(في جوهري اللغة : 219)، فنفهم أنه يستعملها من أجل إقناع المتلقي، أنّه غير مُقرِر في وجهة النظر التي يطرحها على سامعيه أو قارئيه، وأنه بالإمكان أن تتغيّر؛ إذا صادفت ما يدحضها، أو تُناقش من قبل الدارسين، وهذا ما قد وسم سو سير بأنه فيلسوف.

ثانيًا: بين (المحاضرات) و (الجوهري) ... مائة عام.

حين ترجم زاواوي النصوص المحقَّقة إلى العربية، لكتاب (الجوهري)، ذكر في معرض دراسته لهذا المُترجَم عِدة مميزات (ينظر : المصدر السابق: مقدمة المترجم)، هي :

1. إنّه نص يقيم مسافة فكرية أو قطيعة مع التصورات التي وردت في كتاب (المحاضرات).
2. لنص (الجوهري) امتياز في هيئته، أي الجنس الأدبي الواضح، الذي نستطيع ردّه إليه أو إضافته فيه.
3. لنص (الجوهري) امتياز في مضمونه، فهو خلاف مضامين نص (المحاضرات).

واضح للدارس أنّ هذه المميزات الإيجابية، تُلمِّح ضمنًا أو صراحةً إلى عدم وجودها في نص (المحاضرات)، لذلك درج زاواوي إلى إجراء مقارنة بين نص (المحاضرات) ونص (الجوهري)، في مواضع مختلفة من مقدمته، والفصول الخاصة ببحثه، فكانت المقارنة بين النصين على النحو التالي (ينظر : في جوهري اللغة . 13 و 14 و 119 و 120) :

نصوص الجوهري	نصوص المحاضرات
– الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه، أقرب إلى المصنفات العلمية التي تتخذ شكل التعريفات الوجيزة، منه إلى المؤلف تأليفًا محكم الأبواب.	– نص يعتريه الشتات، وقلّة السداد، أي لا يمكن إرجاعه لجنس محدد.
– نص تحكمه فكرة رئيسية واحدة، تتفرّع عنها مسائل ثانوية محكمة أيضًا، مرتبطة فيما بينها ارتباطًا محكمًا أيضًا.	– إنّها مقولات يقينية وأفكار جاهزة.
– إنّه نص تشيع فيه عبارات الفلسفة والسيميائيات والمنطق والرياضيات، وتتخللها مصطلحات لسانية مبتكرة أصيلة.	– مؤلَّف لا يفي بفكر سو سير الأصيل، و لا يعبر عنه.
– أسلوب تأليفه، أسلوب علمي؛ يغلب عليه التردد، والتحقق، و التمحيص، أسلوب شاك بانٍ للمعرفة، أسلوب لا يطمئن للفكرة حتى ينظر فيها من جوانب متعددة، فيعيد صياغتها كي تستنفذ مضامينها.	– أسلوب تأليفه، أسلوب غير علمي؛ ركن إلى اليقينيات، مشحون بالتناقضات، يعتريه كثير من اللبس والخلل و الاضطراب، أسلوب يستعين في كثير من مواطن الكتاب، بأشياء لم يرتضِ لها سو سير ركنًا علميًا، بل إنّها تعد في كثير من الأحيان على النقيض تمامًا ممَّا أقرَّ به هذا اللسانى.

و إذا أراد الدارس الوقوف عند تلك المقارنات و النقود، و التدقيق في ما كُتب بينها أثناء البحث، سيجد ما ينتقص من موثوقيتها، بقدر ما يراد توضيحها، أو لنقُل: سيجد زاواوي ينقض نفسه بنفسه؛ فبعد أن ذكر إنَّ مضمون (الجوهري) يأخذ شكل التعريفات (الوجيزة)، أخذ يبيّن حاجة نص (الجوهري) للشرح والتفسير

والإيضاح، وهو الأسلوب نفسه، الذي يجده الدارس في (المحاضرات)، لكن وجوده فيها سوء تعبير (ينظر : في جوهري اللغة : 13و 18)، ووجوده في الجوهري، ليس ناجمًا عن سوء تعبير، و هو يرى أحقية التأويل والتفسير فيه؛ كونها نصوص متألفة من عبارات أو فقرات غبر مكتملة الصياغة، أو صياغتها غير نهائية! ومن ثمَّ فإنَّ هذا الأمر بسيطًا جدًا؛ لأنَّ نص (الجوهري) " لا يحمل طابع الكتاب المنجز المقدّم للنشر" (في جوهري اللغة: 14) ، فضلًا عن أنه نصّ لسانيّ ليس معهودًا ولا يستبعد مفاهيم لسانيات عصره السائدة آنذاك، أي أنه نص لا يمثل مفاهيم عصره، ولا يمثل مفاهيم عصر ترجمة النصوص، و لا ندري ما الرؤية الوسطية في ذلك من منظور زاواوي! وبعد ما مرّ ذكره، هل بالإمكان أن نقول إنَّ نص (الجوهري) نص جاهز ومتكامل للنشر، في حين أن نص (المحاضرات) غير سديد ومشتت؟!

و فيما يخص الفكرة الواحدة، التي يدور حولها كتاب (الجوهري)، و يقصد بها (الثنائية : آنية المورفولوجيات و تاريخية الصوتيات)، التي اختارها –أيضًا– زاواوي لتكون مدخلًا تعليميًا للدراسة (في جوهري اللغة)، وأن يُقرَأ فكر سو سير المُغيَّب بعد مائة عام، من جديد، وفق هذه الثنائية، مع أنّ هذا البحث حاول أن يثبت عدم تقصّد سو سير منهج الثنائية في محاضراته، انطلاقًا من إثبات أن فكره فلسفي مختلف الاتجاهات، وهذا بحد ذاته ينقض من جانب آخر اتصاف نص (المحاضرات) باليقينية والجهوزية، فكيف لمن يثبت أنَّ طلبته، قد نقلوا عنه مفهوم (وجهة النظر) خمسين مرّة (في المحاضرات) أن يوسم النص نفسه بنقيضه؟ وهل يتشابه اليقين مع الفلسفة أم تتشابه جهوزية الأفكار مع تأويلها وتفسيرها؟!

الذي يعني البحث، أن زاواوي الذي يبني فصوله على هذه الثنائية، فضلًا عن أنه قد مُلئت بها كثير من فراغات النصوص (الجوهري) المحققة، نجده غير أكيد من هذه الثنائية فقال : " إنَّ اختيارنا للثنائية القائمة بين آنية المورفولوجيات وتاريخية الصوتيات، كمدخل لقراءة "جوهري اللغة"، إنما هو اختيار تعليمي، و قد لا يعبر عن مقصد دو سوسير تعبيرًا صادقًا" (المصدر السابق : 101)، فما هي إلا عبارة تنمُّ عن شعور زاواوي بالتردد والتناقض ليس إلّا.

وفي ما يخصُّ العبارات الفلسفية و المنطقية الشائعة في نصوص (الجوهري)، فضلًا عن عبارات السيميائيات، والرياضيات، كذلك المصطلحات اللسانية المبتكرة، فإن زاواوي يذكرها مجتمعة، معبّرًا عنها بالشائعة في (الجوهري)، وكأنَّها ليست موجودًة في نصوص (المحاضرات)، إلّا أنَّ زاواوي زاد عليها (المنطق).

و بعد، لمّا انتهى زاواوي من مقارنة النصين من حيث مادتهما العلمية، دلف إلى المقارنة بين النصين من حيث أسلوب الكتابة، فوسم أسلوب نصوص (الجوهري)، بالأسلوب العلمي الشاك الباني للمعرفة، المتعدد النظرة و الصياغة، و كيف لا وهو أسلوب اللسانياتي سو سير! في حين عدَّ أسلوب نصوص (المحاضرات)، أسلوبً غير علميً، فهو متناقض و مضطرب ومُلتبس؛ لأنّه ليس أسلوب سو سير، إنما أسلوب التلميذين بالي و سيشهاي المحض!

ثالثًا: سو سير بيـــــن تلميذينِ و محققينِ

جدير ذكره، إنَّ من المفارقة المُلفتة نجد لسو سير محققي مكتشفات، و كاتبي محاضرات، و هذا يوحي للباحث المُدقِّق، إلى عدم قبول الناس لهذا اللساني إلّا المقابلة و الثنائية! وهنا، يروم هذا البحث في ثناياه، إلى إلفات نظر القارئ إلى عِدة مسائل مهمة، من بينها ، ما سوغ به المحققان و الكاتبان لأنفسهم أن يتممّوا به ما خُفي من فكر هذا اللسانياتي.

قبل كل شيء، يجب الاعتراف بأنَّ سيمون بوكي و رودولف أنغلر، كانا أكثر إنصافًا من زاواوي في نقد الأسلوب الوارد في (المحاضرات)، بل إنهما اعترفا بأهمية المحاضرات، و مقامها الذي نالته، فهما يريان أنّه " باتَ التوكيد على بعد أفق تأملات دو سو سير ضروريًا، من خلال مقارنة نصوصه المخطوطة، وما دوّنه عنه طلبته بمحتوى المحاضرات في اللسانيات العامة، والتنبيه إلى أنَّ مشروعه العلمي أقل جزمًا ممّا عبّر عنه كتاب المحاضرات، لكنه قائم في الآن ذاته على أسس موضوعة بدقة و جلاء ... أن فكر دو سو سير الذي يكشف عنه نصوصه الأصلية، على ما تبديه هذه الاستشهادات، فكر أقل يقينًا ممَّا يروّج له كتاب المحاضرات" (في جوهري اللغة : 149 و 151).

ومن النافع أن نشير إلى ما سمح به المحققان لنفسيهما، عند التحقيق، ولم يقبلاه من بالي و سيشهاي، فضلًا عن عدم قبوله عند بعض الباحثين العرب، فقالا : " ولقد بدا لنا من المفيد أن نضم إلى هذه النصوص مجموع النصوص المخطوطة لدو سو سير حول اللسانيات العامة، المودعة أيضًا بالمكتبة العامة و الجامعية، وهي الملحقة بالطبعة النقدية التي أعدها آنغلر المنشورة تباعًا سنتي 1968م و 1974 و هذه النصوص التي أشرنا إليها، في فهرست الموضوعات بعبارة " وثائق قديمة" معروفة ههنا وفق معايير تحقيق مختلفة جدًا عن تلك التي انتهجتها الطبعة النقدية، حتى تتجانس هذه النصوص القديمة مع النصوص الجديدة" (المصدر السابق : 154).

و واضح تمامًا، أن من بين نصوص (الجوهري) نصوص أخرى، خارجة عنه، من منتصف القرن الماضي، بل إن صحّت فهي من مائة عام على الأقل، استُعين بها؛ لتكون متماهية مع الفكرة الرئيسية التي سبق ذكرها، لكتاب (الجوهري)، إلى درجة تحقيقها بطريقة خاصة تجعلها (متجانسة) مع النصوص الجديدة المكتشفة، ولعل بعضنا يودُّ معرفة، ما هو رأي سو سير في ضمّ مادة علمية مخبّأة مع مادة علمية معلنة، تحت دفة كتاب، بعنوان رئيس واحد!

في حين أن التلميذين، استعانا ببعض الدفاتر و الملحوظات المكتوبة من المحاضرات التي ألقاها سو سير على طلبته، وأخذوا منها، و قارنوا ما فيها بما كتبوه هم أنفسهم، إلا أنهما رُميا بالاختلاف و التجني على أستاذهم؛ بسبب عدم ورود بعض الملحوظات في مدوناتهم وورودها عند غيرهم من الطلاب أو بالعكس، وبإمكان الباحثة إرجاع سبب ذلك إلى عِدة أمور، هي:

أ- اختلاف وجهة نظر الطلاب فيما يسجلوه عن أستاذهم من حيث الأهمية.

ب- اختلاف سرعة الطلاب في التدوين، و مجاراة الاستاذ في إلقاء محاضراته، والاسترسال بها، لذلك بعضهم يدون والآخر لا يستطيع المجاراة فيسجل شيء ولا يسجل شيء آخر، وفي الآخر الإنسان ليس آلة تسجيل.

ت- قد لا يحضر بعض الطلاب، بعض المحاضرات.

ورغم ذلك، وُجد من يرمي كاتبي المحاضرات المُلقاة، بالاستخفاف بها، في حين أنّه يرى ضرورة عدم التدقيق على الفراغات الموجودة في نصوص (الجوهري)، والتي يمكن للمحققينِ أن يملأنها بما بدا لهما مناسبًا والموضوع فقال : " لا ينبغي التحسّر على وجود فراغات في المخطوطات، ودفاتر الطلبة. فذلك عادي فيما هو على شاكلتها، اعتماد مخطوط مبرقع للتعريف بمؤلّفٍ ما، هو أفضل من اعتماد تحريف كامل"(سوسير في المستقبل : 33)، و قوله : "عادي فيما هو على شاكلتها" لم نجده كائنًا مع بالي و سيشهاي، فرُميت جهودهما بـ(التحريف الكامل)، مع أنه في تتمة بحثه يصف مخطوط (الجوهري) بأنه (كتاب غير مكتمل)، ومع هذا يعده (ناضجًا بما فيه الكفاية ليُنشر)، و يذكر أيضًا، إنّ نصوص (الجوهري) تشتمل على تصويبات، وإدراجات، عددها الكثير، يشهد على مستوى عالٍ من الدقّة! (ينظر المصدر السابق: 42)

و لابدّ من الإشارة إلى أن جزءًا من هذه الدّقة و النضج ليس من وضع سو سير، و لا من ترتيبه، و إن صحّ لسو سير شيءٌ منها، فهو رؤوس الأقلام و حسب، وإلّا فبإجماع الباحثين، أن سو سير شكاك لا يركن لوجهة نظر إلا و تناولها بالبحث، يضاف إلى ما سبق ذكره، من ناحية أخرى، أشار المحققان إلى أنهما قد أسقطا مجموعة من المخطوطات المكتشفة معنونة بـ(كتابات أخرى في اللسانيات العامة : وثائق جديدة)، و لم يذكرا سبب عدم إدراجها مع بقية النصوص المكتشفة، لذلك ترى الباحثة أنه من المفيد، في هذا المقام أن تُذكر المبادئ (ينظر: في جوهري اللغة : 126 و 145 و 155) التي التزمها المحققانِ في تحقيق مخطوطات (الجوهري) و هي كما يأتي :

- عناوين الفصول بعضها من وضع سو سير، وبعضها الآخر من وضع المحققينِ.
- ترتيب الوثائق هو من وضع المحققينِ.
- ترك المحققان الفراغات و العبارات غير الواضحة بين معقوفتين، و هما وفق ذلك، يعترفان بأنّ (الجوهري) نصوص مسوّدة، و ليس كتابًا مكتملًا.
- لم يتمّ إثبات المقاطع المشطوبة، أو بعضها في نصوص (الجوهري).
- الهوامش نادرة، و إن وجدث فهي من وضع المحققينِ.

ومن خلال هذه المبادئ، تستطيع الباحثة إبداء رؤيتها و شكوكها في النص المُحقَّق بعد مائة عام، وهي ما يأتي :

- وضع العناوين من قِبل المحققينِ، مع أن سو سير لم يضع لبعضها عنوانًا، قد يوقع في اللبس، فربما تلك المكتوبات غير المكتملة، هي إكمال لأوراق أخرى، موجودة في تلك الأكوام أو غير موجودة، أي أنّها ليست أوراق مستقلّة بنفسها، وقد يقع الخلط، وقد ذُكر إن بالي و سيشهاي وقعا في الخلط، مثلًا، في إرفاق مثال لعبة الشطرنج تحت ثلاث مباحث، لا تتلائم و لا تتسق مع المثال

المُنسَاق (ينظر : في جوهري اللغة: 126و 127، و130) فقيل : " فقد استدعاه شارل بالي و ألبير سيشهاي في سياق لا يمتُّ بمفهوم القيمة بصلة مباشرة، في حين أن التشبيه هذا بالنظر إلى موقعه من ترتيب المحاضرات الفعلية، يتصل بمفهوم القيمة اتصالًا مباشرًا، و لا يمكن تمثله إلا بتمثل مفهوم القيمة" (المصدر السابق: 130–131)، و قيل في إيراده في موضع آخر اعتراضًا أيضًا : "و لقد لجأ شارل بالي و ألبير سيشهاي إلى هذا التشبيه، على الرغم من معدم توافق محله من الكتاب مع محله من المحاضرات الفعلية، التي ألقاها دو سو سير فيما بين سنتي 1907 – 1911 في جامعة جنيف" (المصدر السابق:131–132)، ويلاحظ القارئ أن المترجم، يجعل من (الجوهري) كتابًا فعليًا أصليًا، و عليه يقارن موضع ورود مثال الشطرنج، و قد اتضح فيما سبق، أن نصوص (الجوهري) كثير منها بلا عناوين، وهي بلا ترتيب، فكيف أصبحت انموذجًا لمقارنة نص استقرت عليه الآراء بعد عشرات السنين! وإذا حاول الباحث الالتفات إلى أحد مباحث (الجوهري)، مثلًا ، المبحث الثاني عشر، وجد عنوان (حياة اللغة)، والدراسة تحته لا تتناسب مع العنوان؛ إذ أدرج فيه إلى تفصيل القول عن (العلامة) (ينظر: المصدر السابق : 199–200) ، وقد مرّ بيان مفهوم حياة اللغة و تدرّج و اختلاف وجهات نظر سو سير فيه.

- ترتيب الوثائق من وضع المحققين، و قد نُعتت تلك الوثائق بـــ(الأكوام)، و الباحث الدقيق، يعرف ما لتسلسل المادة العلمية من ضرورة في الذهن، وبيان الحقائق العلمية، فلا ندري، ماذا أراد أن يضع سو سير أولًا في التمهيد أو الفصل الأول، و هكذا، و لعل المحققان وضعا الترتيب بالنظر إلى كتاب (المحاضرات) في قليل أو كثير؛ إذ لا نستطيع أن نردّ ترتيب التلامذة كل الردّ و نرفضه، فهما من أخذا عن سو سير و حضرا دروسه، و معلوم أن بعض الفصول أو الدروس تُمهِد و بعضها دراسة و أخرى استنتاج و هكذا، و هذا لا شك، ما دعا كثير ممّن استفاد من نصوص (المحاضرات) أن يرمي التلامذة بالتشتت و التناقض في النقل عن أستاذهم، بل هذا ما رمي به الأستاذ كونه لم ينشر ما كتب، ولم يكتب ما نُشر عنه، بل و لم يرغب بنشر بعض ما كَتبَ، و تركه أكوامًا ورقية متراكمة، أليس الحوار التالي، واردًا عنه بخصوص النشر؟ (ينظر : نصوص في اللسانيات العامة : 172–173)

غوتيي : هل دونت شيئًا من أفكارك الخاصة بتصوراتك وشكوكك عن اللغة؟

سو سير : نعم، أن لي (ملحوظات).

غوتيي: أين هي؟

سو سير : إنها متوارية في أكوام ورقية، في مكانٍ ما.

غوتيي: لماذا لا ترجع إليها؟

سو سير : (لا سبيل) لي للعثور عليها.

غوتيي : أليس من الضروري أن تبحث عنها، لتنشرها؟!

سو سير: سيكون من (العبث) معاودة البحث من أجل النشر.

غوتيي : لماذا؟

سو سير : إنَّ لي عددًا كبيرًا من الأعمال التي (لم تُنشر)!

ثم فجأة، و بعد قرن، يُعثر على هذه الأكوام الورقية! و المحاورة التي أعادت صوغها الباحثة، تفصح بأن سو سير سجّل بعض الملحوظات في اللغة، ولا يدري أين ركمها، فضاعت منه، لكنه غير مبالٍ بالعودة إليها أو لا يهمه و لا يشاء ذلك؛ لأنّه قد يكون لديه ما يعوّض عنها، و هو أما محاضرات يلقيها، و أما كتاب أو بحث يؤلفة، لكنه لم ينشر شيء منه، حتى وقت المحاورة!

- المخطوطات المكتشفة أربع مجاميع، فضلًا عن الإضافات الخارجية، تحمل عناوين مختلفة، بعضها بعنوان (اللسانيات العامة) على أثر (المحاضرات)، وأخرى بعنوان (في الجوهر المزدوج للغة)، وهذا يدل على عدم وجود كتاب مكتمل منظم، و ربما هناك نيّة لتجميع بحوث تحت مؤلّف واحد، فرتب المحققان، و كذلك على أثرهما زاواوي، تلك الأوراق تحت مؤلفين، بالعنوانين السابقين المذكورين، لا مؤلف واحد! مع زيادة أوراق خارجية، و أسقاط أوراق تكميلية.
- أسقاط بعض العبارات المشطوبة بقلم سو سير(ينظر : في جوهري اللغة : 212 و 213 و 214 و ينظر: نصوص في اللسانيات العامة . 184– 185)، سبب خللا ونقصا في النص؛ إذ تبدو الفقرات مقطوعة، و غير مكتملة المعنى، و لعله كان مناسبًا لو نشر المحققان تلك الفقرات المشطوبة في موضع خاص آخر؛ ليعرف الدارس بماذا كان يفكر سو سير في خلوته، وعن أيّ شيء تراجع، و كيف تطور فكره، و ربما بعض ما شطبه سو سير، كان واردًا تمامًا في نص (المحاضرات)، و قد لاحظ قُراء سو سير، أن بالي و سيشهاي، أوردا الرسوم البسيطة، والأمثلة المتنوعة الكثيرة، و الأفكار المتكررة، و المفاهيم المتعددة عن أستاذهم ... حتى اتُهِموا بتغييب فكر سو سير، وعليه تستطيع الباحثة القول : إنّ سو سير معلوم لا يُعلم عنه، أأراد الاسهاب في إيضاح نظريته أم أراد لها الايجاز؟ ولا نظنه أراد هذا أو ذاك، بقدر رغبته لباحثي اللغة و طالبيها، العلم باللغة بذاتها و لذاتها، لا العلم بفكره و نظريته بحد ذاتهما.

النتـــــــائج

- لا يمكن أن يطمئن الباحث و يسمي المكتشفات (الحلقة المفقودة) أو (رابط لأجزاء نص المحاضرات)، إنما هي جزء ممّا فكّر فيه سو سير ، و لا نعرف مدى أهميته بالنسبة إليه؛ كونه لم يعزم على نشرها بنفسه، أو لنقل : لم يكلف نفسه عناء البحث عنها أو العودة إليها لينشرها.
- هذا المبحث لا يدعي فساد (الجوهري)، إنما يؤكد أنها أفكار و أبحاث مختلفة، توارد بعضها لسو سير، كون جزءًا منها وارد في نص (المحاضرات)، حاول البعض دمجها، و اخراجها من وجهة نظرهم هم، التي بلا ريب، هي تختلف تمامًا عن وجهة نظر سو سير، و وجهة نظر معاصريه حتى، و من بينهم تلامذته الذين أخذوا منه.

- يخرج البحث بضرورتين ، الأولى : البحث في الأسباب التي دعت سو سير إلى إهمال أوراق (الجوهري)، و الضرورة الثانية، تؤدي إليها الأولى، وهي البحث في (أسباب البحث) عن أوراق قديمة في العصر الحديث، تخص سو سير منذ مائة عام.
- ليس هناك فرق كبير في المفاهيم اللسانياتية الموجودة في (الجوهري) و في (المحاضرات) لتكون هناك دعوة لهجر نصوص (المحاضرات) و الأخذ بنصوص (الجوهري)
- ظروف كتابة (المحاضرات) فريدة، وظروف اكتشاف وتحقيق (الجوهري) فريدة كذلك، لكن الأخذ عن تلامذة معاصرين و آخذين عن عالِم اللسانيات سو سير مباشرة، و لديهم العلم بلغته و شخصيته و نشاطاته، فضلًا عن التلمذة على يديه، أولى من الأخذ عمَّن دققوا في فكره بعد قرن كامل، فأضافوا، و رفعوا، بما توفر لديهم من خبرة في مجال التحقيق وربما شيء من اللسانيات، فضلًا عن الاستعانة بنص (المحاضرات) نفسه!
- انصاف تلاميذ سو سير، هو انصاف للعلم و المعرفة و الفضل، و التاريخ، و كل باحث عرضة لنقد الآخرين، و لو بعد مائة عام.

المصـــــــادر

- جوناثان كللر. ت، محمد حمدي عبد الغنى. (2000). فردينان دو سوسير، تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات. المجلس الأعلى للثقافة.
- جين إتشسن. ت، عبد الكريم محمد جبل. (2016). اللسانيات، مقدمة إلى المقدمات. المركز القومي للترجمة. القاهرة. الطبعة الأولى.
- حافظ إسماعيل عليوي، عبد الجليل الأزدي، مولاي يوسف الإدريسي. (2017). العودة إلى سوسير– أعمال مهداة إلى العلامة محمد البكري. دار كنوز المعرفة.عمان – الأردن. الطبعة الأولى.
- د. محمد حسن عبد العزيز. (1990). سوسير رائد علم اللغة الحديث. دار الفكر العربي. القاهرة. الطبعة الأولى.
- د. مختار زواوي. (2017) دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللسانيات. دار الروافد الثقافية– ناشرون. بيروت–لبنان. الطبعة الأولى
- فرانسوا راستيي . ترجمة : ربيعة العربي و حافظ إ. علوي. (2021). سوسير في المستقبل . دار كنوز المعرفة. عمان – الأردن. الطبعة الأولى.
- فردينان دي سوسير. ت، صالح القرمادي– محمد الشاوش– محمد عجينة . (1985). دروس في الألسنية العامةالدار العربية للكتاب.
- فرديناند دو سو سير. حققها سيمون بوكي و رودولف أنغلر. ترجمها وقدم لها د– مختار زواوي. (2021). نصوص في اللسانيات العامة. دار الروافد الثقافية. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى.

- فرديناند دو سوسير. تحقيق سيمون بوكي و رودولف أنغلر. قدم له وترجمه د- مختار زواوي. (2019) في جوهري اللغة. دار الروافد الثقافية. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى.
- لويك دويكير. ت، ريمة بركة. (2015). فهم دو سوسير وفقًا لمخطوطاته. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الأولى.
- ميشال أرّيفيه. ت، أ.د. محمد خير محمود البقاعي. (2009) البحث عن فرديناند دو سوسير. دار الكتب الجديد المتحدة. الطبعة الأولى.

References:

- Dr. Mohamed Hassan Abdel Aziz. (1990). Saussure pioneer of modern linguistics. Arab Thought House. Cairo. 1st edition.
- Dr. Mokhtar Zawawi. (2017) De Saussure again, An Introduction to Linguistics. Al Rawafed Al Thaqafia House - Publishers. Beirut, Lebanon. 1st edition
- Ferdinand de Saussure. Investigated by Simon Bucky and Rudolf Engler. It was presented to him and translated by Dr. Mokhtar Zawawi. (2019) In Intrinsic Language. Al-Rawad Cultural House. Beirut, Lebanon. 1st edition.
- Ferdinand de Saussure. T, Saleh Al-Qarmadi - Muhammad Al-Shawish - Muhammad Ajina. (1985). Lessons in general linguistics, the Arab House for the Book.
- Ferdinand de sueur. Achieved by Simone Bucky and Rudolf Engler. Translated and introduced by Dr. Mokhtar Zawawi. (2021). Texts in general linguistics. Al-Rawad Cultural House. Beirut, Lebanon. 1st edition.
- Francois Rasti. Translated by: Rabia El Araby and Hafez E. upper. (2021). Saussure in the future. Knowledge Treasures House. Ammaan Jordan. 1st edition.
- Gene Acheson. T, Abd al-Karim Muhammad Jabal. (2016). Linguistics, Introduction to Introductions. National Center for Translation. Cairo. 1st edition.
- Hafez Ismail Aliwi, Abdel Jalil Al-Azdi, Moulay Youssef Al-Idrisi. (2017). Return to Susir - works dedicated to the scholar Muhammad al-Bakri. Knowledge Treasures House. Amman - Jordan. 1st edition.
- Jonathan Keller. T, Mohamed Hamdy Abdel-Ghany. (2000). Ferdinand de Saussure, The Rooting of Modern Linguistics and the Science of Signs. Supreme Council of Culture.

- Loic Duecker. T, Rima Baraka. (2015). De Saussure understood it according to his manuscripts. Center for Arab Unity Studies. Beirut. 1st edition.
- Michel Arefieh. T, Prof. Dr. Muhammad Khair Mahmoud Al-Bikai. (2009) In Search of Ferdinand de Saussure. New United Book House. 1st edition.